

# الإمام التابعي الحسن البصري

د/ رمضان متولي(\*)

نحمد الله العليّ القدير الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله -تعالى- الموتى، ويُبصِّرون بنور الله أهل العمى، وينفون عن كتاب الله -تعالى- تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، اختارهم الله بفضله، وأخر من شاء بعدله، اختص من أهل الإيمان من أحب فعلمهم الكتاب والحكمة، وسلك بهم صراطه المستقيم، وجعل منهم أئمة في العلم والتقوى، والزهد والورع، والجهاد والبطولة، ما غيروا ولا بدّلوا، بل آمنوا واتبعوا واستقاموا.

قال فيهم المولى -عز وجلّ-:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

(الأحزاب: ٢٣)

هذا، ومن هؤلاء الرجال الصادقين إمامنا الحسن البصري<sup>(١)</sup> عَلمٌ من أعلام التابعين، اشتهر واستفاضت شهرته عِلماً وأدباً وزهداً وورعاً وتقوى؛ فكان القدوة والمثل الأعلى

(\*) أستاذ بجامعة وهران بالجزائر سابقاً.

(١) لمزيد من ترجمته انظر: طبقات ابن سعد ٥٦/٧، الزهد للإمام أحمد (ص ٢٥٨)، حلية الأولياء ١/١٣١٤، تهذيب الكمال ٩٥/٦، الجرح والتعديل ٤٠/٣، سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤، تذكرة الحفاظ ٧١/١، العبرة ١/١٠٣، تاريخ الإسلام ٩٨/٤، البداية والنهاية ٢٦/٩.

والأسمى لعلماء الأمة من بعده.

وكان أهل البصرة «إذا قيل لهم: من أعلم أهلها، ومن أروعهم، ومن أزهدهم ومن أجملهم؟ بدأوا به، وثنوا بغيره»<sup>(٢)</sup>.

ولد إمامنا البصري بالمدينة المنورة سنة إحدى وعشرين للهجرة، ولأقداره الطيبة يَسَّرَ الله -جلت قدرته وعظمت حكمته- لأمه العمل كمولاة في خدمة أم سلمة زوج نبينا ﷺ. ولطيب خلق أم سلمة وكرمها وحنانها ورقة قلبها وحبها للإحسان والمعروف الذي طُبِعَتْ عليه في بيت النبوة منبع الكرم والإحسان، رَبَّتْ الحسن في حجرها وأرضعته بلبانها، ودرَّ عليه ثديها لبرها به، وأنزل الله في قلبها

(٢) ابن الجوزي: آداب الحسن البصري ص ٢٣، ط دار النوادر - لبنان ٢٠٠٨م.



الرقاشي وتعلم منه فنون القراءات»<sup>(٥)</sup>. كما تعلّم ممن يقصون فنون القص وطريقة القصص والتذكير. ويبين ألوان هذه المعارف المتشابكة تدرج معارف من الفقه واللغة والأدب والحديث، تَحَصَّل عليها الفتى البصري بما وهبه الله من فهم وقدرة لتحصيل العلوم والفنون والمعارف، حتى تكوّن لديه مادة ثقافية ومعرفية تكاد تكون متكاملة بعد القرآن الكريم، خصوصاً وأن الطريقة التي أخذ بها نفسه أثناء تحصيله لهذه الفنون والمعارف كانت دقيقة ومتدرجة، من ذلك أن فهمه للقرآن الكريم لم يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها وفيم أنزلت<sup>(٦)</sup>.

كما حرص على الإقبال على مجالس الصحابة داخل مسجد البصرة خصوصاً أولئك الذين اتخذوا من البصرة مستقراً لهم، وضمت تلك الزمرة الطيبة أنس بن مالك وعمران بن الحصين وعبد الرحمن بن سمرة وعلاقة بن شجار التميمي وغيرهم كثيرون. وكان مما يدور في مجالس تلك الثلة المباركة الكريمة حرصهم على الحديث عن علاقتهم برسول الله ﷺ، وعن مدى تلك العلاقة، وعن حوادث بارزة تتصل بهم<sup>(٧)</sup>.

وزاد الله في إكرامه -حين أراد له في غدواته ورواحه بين بيته ومسجده- أن تعرّف على نفر من الناس عُرفوا بالزهد فاحتفى بهم

(٥) تهذيب التهذيب: ج٢، ص ٢٦٣ إلى ص ٢٦٨.

(٦) تهذيب التهذيب: ج٢، ص ٢٦٣؛ ص ٢٦٨.

(٧) الإحياء، ج١، ص ٣١.

محبة الحسن، فعادت عليه بركة النبوة، ولمّا علم سيدنا عمر بن الخطاب باهتمام أم سلمة وحنانها على الحسن دعا له بالعلم والتفقه في الدين. فتكلم بالحكمة وارتقى في الصلاح والمعرفة إلى أفضل مكانة وأعلى رتبة فكان أحد المتقين ومن أولياء الله الصالحين الصديقين.

وروي في الخبر<sup>(٣)</sup> أن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- سمعت الحسن يتكلم، فقالت: من هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين؟ وقيل لعلي بن الحسين<sup>(٤)</sup> -رضي الله عنهما-: إن الحسن يقول: «ليس العجب لمن هلك كيف هلك؟ وإنما العجب لمن نجا كيف نجا؟ فقال عليّ: سبحان الله إن هذا كلام صديق يعتني بالحكمة حتى نطق بها».

وسمعه آخر وهو يعظ، فقال: «لله دره، إنه لفصيح، ذو لفظ صحيح إذا وعظ، هداه الله -بمنه وكرمه- إلى سلوك طريق الخير والرحمة والمغفرة والعلم، فراح يتردد على الحلقات التي تعقد في مسجد البصرة، وأصبح مستمعاً ومنصتاً ومتابعاً جيداً إلى دروس علماء التفسير آنذاك وهم يفسرون القرآن الكريم بأسلوب حسن أخذ على الفتى لبه وعقله وقلبه فأقبل بكلية على دروسهم، كما حرص على الجلوس في حلقة حطان

(٣) الذهبي: تاريخ الذهبي، ج ٤، ص ٩٩.

(٤) هو علي بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- زين العابدين، وُلد سنة ثمان وثلاثين ظناً، وكان ثقة، مأموناً، كثير الحديث، ورعاً. توفي سنة أربع وتسعين، آداب الحسن البصري: ص ٢٣.





أكثرها من الكذب والتهويل مما جعل الإمام علياً -رضي الله عنه- يمنعهم من التصدي للقص على الناس، ويأمر بإخراجهم من جامع البصرة، ولكنه لما سمع قصص الحسن البصري وجديتها ورسالتها وهو يحدثهم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب الخلق وآفات الأعمال وخواطر الشيطان إضافة إلى حرص الإمام على تحري الصدق فيما يرويه به على محبيه ومريديه وتلاميذه من قصص، خاصة وأن هذا القصص كان باباً دخل منه على الحديث النبوي كذب كثير، كما أنه اتخذ أداة سياسية لإشعال الفتن بين الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ومعاوية ابن أبي سفيان.

فقد كان مولانا الحسن البصري قاصاً من نوع فريد يحرص في قصصه على إرضاء خالقه -سبحانه وتعالى- ثم يعتمد على التذكير في الآخرة ونحوها، ولهذا فإن سيدنا علياً -رضي الله عنه- لم يمنع إمامنا من القص في مسجد البصرة، بل ثبته وأثنى عليه<sup>(١١)</sup>.

ومما أثر من قصصه قوله: «يا ابن آدم لا تُرْضَ أحداً بسخط الله، ولا تطيعن أحداً في معصية الله، ولا تحمدن أحداً على فضل الله، ولا تلومن أحداً فيما لم يؤتك الله. إن الله خلق الخلق فمضوا على ما خلقهم عليه، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصة في رزقه فليزدد بحرصة في عمره أو يغير لونه أو يزد في أركانه أو بنائه»، وكقوله: «يا ابن آدم لم تكن

(١١) إحياء علوم الدين: ج١، ص ٣١.

الناس وزادوا في إكرامهم والتبرك بهم<sup>(٨)</sup>. ونتيجة لكل ما سبق من حرصه على تحصيل العلم من منابعه الأصلية أن أصبح موسوعة علمية متنوعة، فقد تعلم في شتى نواحي المعرفة، حتى قال عنه تلميذاه حميد ويونس: «ما أدركنا أجمع من الحسن»<sup>(٩)</sup>، وقال الربيع بن أنس: «اختلفت إلى الحسن عشر سنين أو ما شاء الله فليس من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبل ذلك»<sup>(١٠)</sup>. وكان تلاميذه يلتفون حوله كل لغايته التي يسعى إليها؛ هذا يأخذ عنه الحديث وهذا يلقن منه التأويل، وهذا يسمع منه الحلال والحرام. وهذا يتبع كلامه في العربية، وهذا يحكي الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء.. إلى غير ذلك.

هكذا كان إمامنا الحسن البصري ذا شخصية علمية متميزة. فقد أكرمه الله وعظمت قدرته بمعرفة وفهم واستيعاب علوم القراءات حتى إنه قرأ عليه نخبة مختارة من علماء التفسير والحديث والفقه والزهد والعقائد والدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-.

كما برع الحسن في فن القصص، وهو فن له تاريخه ومصادره، وقد استحدث في صدر الإسلام، وذاع وشاع في ولاية معاوية بن أبي سفيان، وكان أكثر القصص في عهده قد

(٨) تهذيب ابن عساکر، ج٦، ص ١٣.

(٩) انظر غايته النهاية ج١ ص ٢٣٥، وحجة القراءات ص ٧٠.

وإتحاف فضلاء البشر ج١ ص ١٧.

(١٠) أبو عمرو بن العلاء: هو أحد أئمة القراءات السبعة وأحد أساتذة النحو النابهيين في البصرة، وهو يعد تلميذاً للحسن البصري في علم القراءات، لكن جهوده في علوم النحو تجعله أستاذاً في فنه.



صفوف الفاتحين مشاركاً لهم فيما تقوم به جيوشهم من فتوحات. وتتعدد الروايات أن الحسن رافق الأحنف بن قيس في فتح مرو الروز<sup>(١٥)</sup> وأنه زامل عبد الرحمن بن سمرة في فتح كابل والأندغان وزابلستان فترة امتدت لثلاث سنوات<sup>(١٦)</sup>، كما أنه زامل المهلب بن أبي صفرة إحدى الغزوات، وأن المهلب كان يقدمه حين يحتدم القتال، ومنها المعركة التي انفرد فيها سنة أربع وأربعين للهجرة في جماعة من جيش المسلمين وهاجم المنطقة بين هراة والملتان<sup>(١٧)</sup>.

هذا، وقد نتج عن حياة الجهاد التي عاشها الإمام بين صفوف المقاتلين أن قَرَّبَتْ بينه وبين عبد الرحمن بن سمرة والأحنف بن قيس وغيرهما من شيوخ علوم الحديث فروى الحديث عنهم واستقى الكثير من معارفهم وتجاربهم وآرائهم السديدة، لكن التأثير القوي للغزو والجهاد في نفسية الإمام جاء من مواجهته الموت مواجهة حية أمكنته من الوصول إلى المعرفة الحقيقية لمعنى الموت - لكنه آمن بأن طريق العلم أفضل من طريق الجهاد - وفي ذلك يقول: «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء، فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء»<sup>(١٨)</sup>.

ثم جذبه رونق البصرة وبريقها ورواؤها في ازدهار العلم وكثرة العلماء إلى العودة أدراجه إلى منازل العلم والعلماء فيها، وقَسَم وقته

فكنت، وسألت فأعطيت، وسُئِلت فمَنعت فبئس ما صنعت»... وعلى هذا النحو عرف الحسن بمتانة خلقه وصلاحه وعلمه وفصاحته، فأما متانة خلقه فتظهر في أنه لم يكن يخشى أحدًا في إبداء رأيه والخلاف الحاد بينه وبين الحجاج الثقفي شاهد على ذلك. ورغم ذلك كان الحجاج معجبًا بأسلوب الإمام الوعظي، حتى أنه كثيرًا ما كان يتردد على مجالس الإمام مستمعًا ومندهبًا ومعجبًا بوعظه<sup>(١٢)</sup>.

كما كانت العلاقة بينهما لا تخلو من لحظات ود واحترام، حيث يؤكد الرواة أن الإمام حين كان يتوجه بالزيارة للحجاج في داره، فإنه يكون موضع ترحيب وتكريم. حيث كان الحجاج يخصه بمزيد من الترحيب والتكريم، حتى أنه كان يضع له كرسيًا إلى جانب سريره ويدني منزلته<sup>(١٣)</sup>، ولما مَرِضَ مَرَضَ الموت طلب من الحجاج الدعاء له بالمغفرة. هذا وقد اتسم مجلس الإمام في مسجد البصرة برحابة صدر واسعة يبيدها الإمام الحسن لمن يحضره، ولهذا حرص على أن يتيح الفرصة لفقهاء وعلماء آخرين لعرض آرائهم على الناس<sup>(١٤)</sup>.

هذا، وإلى جانب القص والوعظ والإرشاد طوال ست سنوات في مسجد البصرة اتجه الإمام إلى مجال آخر من مجالات الحياة، وقضى فترة من زهرة شبابه مجاهدًا في

(١٥) المرجع السابق: جـ ٧: القسم الأول ص ١١٤.

(١٦) إحسان عباس: الحسن البصري: ص ٢٠ - ٢٤.

(١٧) البيهقي: المحاسن والمساوي: ص ٤٩.

(١٨) إحسان عباس: الحسن البصري: ص ٢٠ - ٢٤.

(١٢) تهذيب التهذيب: جـ ٢، ص ٢٦٣ - ٢٦٨.

(١٣) إحياء علوم الدين: جـ ٣، ص ٢٨٣.

(١٤) الطبقات الكبرى - القسم الثاني: جـ ٧، ص ٣٥.





أبدًا، وإنه يخلف سريعًا»<sup>(١٩)</sup>.. وأدى ذلك كله إلى تفوق الحسن على من بقي من التابعين، وحتى قال فيه أحدهم اعترافًا بعلمه وفضله: «تسألوني وهذا الحبر بين أظهركم»، وحتى كان أنس بن مالك يقول لسائله: «عليكم بالحسن فقد علمَ ونسينا». وقال فيه الأعمش: «ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها»<sup>(٢٠)</sup>.

ويصف أبو حيان التوحيدي مجلس الإمام في مسجد البصرة وموضع أصحابه منه قائلًا: «يجمع مجلسه ضروب الناس وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه ويفيض عليهم بفتاواه، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير، وعمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، صاحب علم الكلام، وابن أبي إسحاق صاحب علم النحو، وفرقد السرخسي صاحب الرقائق وأشباه هؤلاء ونظرائهم»<sup>(٢١)</sup>.. وعرف الإمام البصري واشتهر بالتواضع باعتباره تنمة لصفة السخاء، وأنه عامل مشترك بين الغني والفقير، وفي ذلك يروون أنه مر بشاب معجب بشبابه وبجماله، فدعاه وقال له: ابن آدم معجب بشبابه معجب بجماله معجب بثيابه كأن القبر قد وارى بذلك، كأنك قد لاقيت عملك، فداو قلبك فإن حاجة الله إلى أوليائه صلاح قلوبهم»<sup>(٢٢)</sup>. هذا كما اشتهر الإمام بين أقران عصره بالسخاء والكرم حتى أصبح أساسًا من أسس مبادئ الزهد في

وجهه بين الاستمرار في الاستزادة من أهل العلم ومن أصحابه من الصحابة والتابعين نذكر منهم: عياض بن حماد التميمي، ومعل بن يسار المازني، وسمرة بن جندب، وأنس بن مالك، أما من التابعين فقد اتصل بعامر بن عبد القيس التميمي، وصفوان بن محرز وغيرهما، كما حرص شيخنا على ممارسة دوره الذي يسره الله له في إفتاء الناس ودعوتهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتبصيرهم بصحيح الدين وبوعظهم بما حفظه من قصص التاريخ.

هذا.. ويذكر الإمام الذهبي أنه لما أصبحت مبادئ الزهد هي الخطوة المهمة التي أريد بها توجيه الحياة الاقتصادية، خاصة وأن الزهد لم يكن تعففًا عن الكسب المادي فحسب، بل كان سخاء بالمادة وتخليًا عن فضولها للمحتاجين؛ تقدم الإمام الحسن مقدمة العلماء الذين رأوا في اعتناق المبدأ الجديد (الزهد) طريقًا إلى حياة جديدة تقرب صاحبها من الله، وتضعه على الطريق الذي يحبه الله من عباده الصالحين، وعلى هذا أصبح الزهد صفة متلازمة من صفات الإمام الحسن، فقد كان -رضي الله عنه- زاهدًا في الدنيا ليقينه بزوالها وصفاتها، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وأن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون، ومن ثم راح الحسن في جلسات وعظه وإرشاده يدعو إلى الزهد منطلقًا من مقولة إيمانية: «إن المال الذي يزكى لا ينقص

(١٩) تاريخ الذهبي: ج ٣: ص ٩٩.

(٢٠) إحسان عباس: الحسن البصري: من ص ٣٩ - ٤١.

(٢١) معجم الأدباء: ج ١٦، ص ٩٧، تهذيب الكمال في أسماء

الرجال: ج ٦، ص ١١١، الطبقات الكبرى: ج ٧، ص ١١٥.

(٢٢) الحلية: ج ٢، ص ١٠٤.



فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بخيانة»<sup>(٢٥)</sup> هذا ولما تولى عدي بن أرطاة الفزاري رئاسة الحكومة مكلفاً من الخليفة عمر بن عبد العزيز، عهد بمنصب قاضي البصرة إلى الإمام الحسن فتوطدت علاقة الإمام بالدولة وأصبح واحداً من رجالاتها<sup>(٢٦)</sup>، وأدرك عن قرب أن اتخاذ الشرطة أمر لازم وضروري حتى أصبح يقول: لا بد لهؤلاء الناس من وزعة<sup>(٢٧)</sup>. لكن عمله بالقضاء لم يستمر طويلاً فقد استعفى عدياً فأعفاه وولى إياس بن معاوية. هذا وترجع قصر مدة عمله بالقضاء إلى كبر سنه وزهده في تولي المناصب التي تتصل بأبهة الحكم، وأن الإمام قد أدرك أن جلال منصب القضاء قد قوى صلته بالحياة الدنيا ومفاتها وزينتها، وأن ذلك قد يدفعه إلى التخلي عن كثير من المبادئ التي يحرص على التمسك بها فطلب الإعفاء<sup>(٢٨)</sup>.

(٢٥) الكامل ج١، ص ٢٣١.

(٢٦) الطبقات الكبرى: ج ٧ ص ١٢١.

(٢٧) نفس المرجع السابق ج٧ ص ١٣٠.

(٢٨) الطبقات الكبرى: ج٧، ص ١٢١.

حياته، أي أصبح جزءاً من مذهبه العام في التخلي عن الدنيا وفي إذلال الدينار والدرهم، وأصبح فعلاً يصدق فيه قوله: «بئس الرفيقان الدرهم والدينار لا ينفعانك حتى يفارقاك»<sup>(٢٣)</sup>. وتذكر كتب السير أن الإمام الحسن كان على صداقة وطيدة وكريمة بالخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، والذي كان يأنس لرأي الإمام وفتاواه ونصائحه، وأنه كثيراً ما كتب للإمام مستشيراً وطالبا المشورة والنصيحة، ومن يقرأ كتب الإمام ورسائله إلى عمر بن عبد العزيز يدرك إلى أي حد كانت عظاته شديدة البلاغة وذات تأثير عظيم في نفس قارئها، ومن ذلك قوله: «أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل»<sup>(٢٤)</sup>. ولما كتب الخليفة إليه يسأله النصيحة فيمن يستعين به في أحكامه وقضاياه. أجابه مولانا الإمام بقوله: «أما أهل الدين فلا يريدونك، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم، ولكن عليكم بالأشراف منهم

(٢٣) البيان ج٣ ص ١١٨، والعلية: ج٣ ص ١٤٣.

(٢٤) العقد الفريد ج٣: ص ٣٠٣.

